جامعة محمد بوضياف المسيلة
كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية
محاضرات في العلاقات بين المغرب الاسلامي و العالم المسيحي
ماستر2 تاريخ الغرب الإسلامي

التصوف في الأندلس
بين القرن 4ه و 9ه/11 و 17م

التيارات الصوفية في الغرب الإسلامي

الأستاذ الدكتور كمال الفيلالي

من الزهد الى التصوف :

ظهر الزهد في الأندلس كامتداد للتصوف في المشرق و المغرب الإسلامين، على طريق الفتوحات الإسلامية الى شبه الجزيرة الأيبيرية، بعد القرن الثاني الهجري.
انتشر كسلوك و ممارسة روحانية في اوساط المجتمع الحضري بين العلماء و الفقهاء في اشبيليا و بالنسيا وقرطبة والجزيرة وغيرها من المدن.

اعتبر بعض المؤرخين المستشرقين، خاصة منهم الإسبان، ان التصوف الإسلامي هو عبارة عن تطور للرهنبة المسيحية التي سادت في ديارات بلاد المشرق الصليبية، و في المونتسرات على الثغور بالجبال و حول ضفاف البحر الأبيض المتوسط، حيث حولت الديارات والترسانات بعد القرن التاسع الميلادي الى رابطات وتكك يختلي ويعتكف بها الزهاد.

لم تعرف حركة الزهد والتصوف التي ظهرت في الأندلس في القرن الثالث الهجري (3هـ) أي 9 م، إلا من خلال كتب التراجم وكتب الطبقات، التي كانت تختلف عن كتب المناقب، بحيث انها تقتصر على اخبار العلماء والفقهاء ومكانتهم العلمية.

- Manuela Maran, The Early Of Zuhd In Al Andalous, Frederick De Jong Et Brend Radtke, 1992

فكانت كلمة الزهد والتصوف تستعمل في نفس السياق، الذي استعملت فيه في المشرق والمغرب الإسلاميين، فانتشر التصوف بين الفقهاء المالكيين والعلماء في شكل أخلاق وفلسفة حياة واعتقاد وممارسة دينية واجتماعية. فتميز بفضائل الأخلاق والمعرفة والزهد، فكان الزهاد يعرفون بمظهرهم وبسلوكهم وابتعادهم عن البذخ، فكانوا يرتدون الثياب الرثة، ويمشون حفاة الأقدام. كما كان يفعله أبو عبد الله محمد بن مسرور القيرواني المعروف بالقاضي العسال، أحد قضاة غرناطة في عهد عبد الرحمان الثاني (206 هـ -230 هـ 822 م – 852 م)، الذي أعرض عن حياة البروز في المجتمع، واستقال من كرسي القضاة، و فضل العزوبة وأصبح من كبار زهاد عصره.

مع بداية القرن الرابع (4 هـ)، بدأت تظهر معاني التصوف الإسلامي في الادب الاندلسي كسلوك و أخلاق و أحوال . و في كتب السير والطبقات أسماء ودلالات و مفردات حول التصوف كزهد وزاهد و عابد ومعتكف والبديل والمتصوف، وكان هذا في كتب التراجم، كما لوحظ ان اغلب الزهاد الذين ورد اسمهم في كتب وتراجم الأغالبة، كانوا يفيدون من دول المغرب و افريقيا.

ـ أبو عبد الله. كان شيخاً فاضلاً، من أهل العلم سمع بإفريقية، من عبد الله بن الخبّاز. وسهل القبرياني، وعبد الرحمن الورقة، ويحيى بن عمر، وابن معتب، والمغامي، وغير واحد. ورحل فسمع بمصر مقدام بن داود، وعلي بن عبد العزيز، وأجازه يونس الصدفي. وكان يقوم الليل كله، هو وكل من في داره. ولقد ذُكر أنهم باعوا خادماً، سوداء، فرجعت إليهم، وقالت بعتموني من اليهود .فقالوا لها :إنهم مسلمون: كتاب ترتيب المدارك و تقريب المسالك، ج 6 ص 67

[

ـ تراجم اغلبية، تحقيق محمد الطالبي، 1968، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية

لقد زاد انتشار التصوف في الأندلس نتيجة الحراك الثقافي والعلمي المنقطع النظير الذي عرفته الهجرة الدينية بين المشرق و المغرب الاسلامين. فكان الكثير من العلماء و الحجاج بعد أداءهم مناسك الحج يعرجون على البصرة و الكوفة و بغداد و يستأنسون بعلمائها و زهادها، فيأخذون منهم الورد و طريقة الذكر و العكوف. اشهر هؤلاء ابو عثمان سعيد بن عمران بن مشرف القرطبي (ت ه 266) و هو من اهل التفسير في حداثته، رحل الى مكة و منها قفل الى البصرة فجالس علمائه و درس على بندار محمد بن بشار و اخد عنه فتزهد حتى صار منقطع النظير . وأبو محمد عبد الله بن مسرة بن نجيح و هو أيضا من اهل قرطبة، كان تاجرا رحل إلى المشرق وهو صغير سمع ب بندار محمد بن بشار فاخذ عنه ثم عاد للأندلس حيث اصبح من كبار زهاد اشبيلية معتكفا منقطعا لربه حتى اتهم بالشدة على نفسه مع أنه كان ملتزما بالسنة محدثا الصلاة . فعاد إلى الحج وتوفي هناك.

كان الاندلسيون عبر رحلاتهم ينهالون من شيوخ المشرق أبجديات التصوف و مبادئ الحقيقة و الشريعة، كما حل ببلاد الأندلس عدد من علماء و زهاد المشرق يدعون إلى نزعتهم وينشرون اذكارهم بين مختلف طبقات المجتمع. من هؤلاء نذكر بن عبد الله بن موسى بن إبراهيم، المعروف ابن المهند، رحل من بغداد ليحل بالأندلس في جماد الأولى من سنة سنة340ه، كان شاعرا له قصائد في الزهد غزته المعاني الروحية و اصبح صاحب حال، توفي بقرطبة سنة (390 ه) وغيره من شعراء و فقهاء وعلماء المشرق الذين التحقوا بالأندلس الذين كان لهم أثر كبير في نشر التصوف بالأندلس .

عن طريق السياحة الدينية حل بالأندلس بالكثير من مشاييخ المشرق. منهم ابراهيم بن علي الديلمي الخراساني و حل بأشبيلية سنة ، 358 بعد أن قران و اعتكف في دمشق مع عبدالله الروذباري . و عاد الى المغرب بجانب ابا الخير التيناتي،وجدير بالذكر أن مشايخ التصوف الذين ذكرهم يتصلون بسلسلة التصوف المصري و قطبها ذو النون المصري، على غرار علماء المغرب الذين يرتبطون بابي مدين شعيب و منهم شيخ الاكابر ابن عربي. لهذا نشهد في الاندلس تضافر السلسلة المغربية بالمصرية و بالبغدادية عن طريق السياحة و التواصل بين الغرب و الشرق الاسلامين.

أ

وقد ارتبط الزهد والتصوف في الأندلس في مرحلة ثانية، بعد اشتداد الصراع الصليبي الإسلامي في غرب البحر الأبيض المتوسط بالمرابطة والمجاهدة، حيث أصبح بعض الزهاد يلجؤون إلى الثغور والمستنيرات البيزنطية المهجورة .. فقد ارتبط هنا الزهد بالمرابطة، كما كان الشأن في بلاد إفريقية والمغرب، فكانوا الزهاد يرابطون في ثغور المغرب وسالة والرباط وسوسة وتلمسان والعباد. وكان أشهر هؤلاء الصوفية الذين كانوا يترددون على المحارس أو الرباطات نذكر أبي الخصيب (298 هـ / 910م)، الذي كان جنديا زاهدا ومرابطا وعابدا و أبو العلاء هارون الأندلسي.

جاءت حركة التصوف منذ البداية كحركة سياسية واجتماعية تقوم على دعوة الحق ومحاربة المظالم. فتميز نشاط الزهد بشجب الظلم والاضطهاد الذي كان يمارسه بعض الأمراء والحكام في الاندلس في العهد الأموي، فإلى جانب محاربة الظلم، كان الزهد يقوم على الانزواء بزاوية المجتمع، بالإعراض عن السلطة السياسية، والانغماس في الحياة العامة، وهذا بالانقباض على الحياة اليومية، والإعراض عن الظهور والسلطة. هذا ما جعل الكثير الزهاد يرفضون مناصب ووظائف حكومية في القضاء وغير القضاء. وهذه الظاهرة هي نفس الظاهرة التي سادت في المشرق وفي المغرب الإسلاميين بين القرن 3 هـ و 8 هـ. و بعض الزهاد من الذين قبلوا بعض الوظائف في البلاط قبل تصوفهم كانوا قد اضطروا مغادرة هذه الوظائف في زمن لاحق وبأسرع وتيرة مما قبلوها. فلم يكن الزهاد يرفضون السلطة فحسب، بل حافظوا على الوعظ والإرشاد وكل الخدمات الروحية والاجتماعية بتواضع وفي خفاء تام. كما بعض الزهاد مثابرين يحبون القراءة و التأمل ، مندمجين في مجالس العلم والمعرفة، محبين للرحلات والسياحة بين ديار الإسلام.

و بحلول القرن الخامس الهجري ساد التصوف كل طبقات المجتمع و لم تكن أي فيئة بمعزل عن الفئات الاجتماعية لما يتعلق الامر بالزهد و الورع ، اذ صار التصوف يشكل شبه مودى« Mode » بين الطبقات العالمية ، خاصة طبقة الفقهاء و القراء، و حتى بعض الحكام كانوا يسلكون سلوك التقشف و الوعر و يتخذون من التصوف كطريقة حياة ووجدان . اصبح التصوف موجدا في كل مظاهر الحياة الاجتماعية و السياسية. يعني انه كاد ان يرتقي الى مصاف دين الدولة كعقيدة وجود و حياة و كنهج فلسفي. فانتشرت مجالس الزهاد في الأوساط العمرانية في المدن و القرى، فيما انتشرت الزوايا والأربطة على اطراف الاحياء و الثغور و انزوت على اطراف المجمعات. كما بقي الكثير من الزهاد يفضلون قرن الجهادين الأكبر و الاصغر و العيش هامش الحياة الاجتماعية في الخلوة والانفراد في التعبد والتقشف والمرابطة. فازدهرت الرباطات في عهد المرابطين اثناء قيام حراكات ابن ياسين التي كانت تدعو الى دعوة الحق و رفع المظالم و رفض المغارم التي كان يطالب بها الأمراء و الحكام . كان من اهم رباطات الاندلس ما عرف برباط العقاب .

https://brill.com/edcollbook/title/6624

زادت الحركة الصوفية في بلاد الاندلس لتبلغ اوجها في القرن الخامس الهجري لتصبح حركة فلسفية عقائدية روحية يقوده كبر فقهاء المالكية من أصحاب الزهد و التوحيد. حيث شهدت الحركة الصوفية في بلاد الغرب الإسلامي بين بلاد المغرب والأندلس ، خلال عصري المرابطين و الموحدين ، انتعاشا كبيرا و هذاكرد فعل للحركة الاجتماعية الناتجة عن الحراك الكبير بين المغرب و الاندلس و التواصل عن طريق السياحة الدينية و الهجرة العلمية بين عواصم الفقه و التصوف في بلاد المغرب و بلاد الاندلس كتلمسان و وهران و البليدة و الجزائر و بجاية و قسنطينة و تنس و القروين و تونس و الكاف و قرطبة و غيرها من بؤر الشريعة و الحقيقة.

كان اشهر المتصوفة و الاب الروحي للتصوف في الاندلس محيي الدين بن عربي، ولد محيي الدين بن علي بن محمد ابن العربي بمدينة مرسية من بلاد الأندلس في السابع عشر من رمضان سنة 1164 ه، سنتين قبل وفاة اول مؤسس لطريقة صوفية في المشرق عبد القادر الجيلالي . من أب يعود الى أصول شامية و ام أمازيغية من شمال إفريقيا. عرف بالشيخ الأكبر و اصبح شيخ الاكبرية و هي طريقة فلسفيية جمعت منذ عصور طويلة خيرة كبار العلماء و المتصوفة منهم الأمير عبد القادر الجزائري و الفيلسوف الفرنسي شودكوفيتش و المستشرق الهولندي فريدريك دي يونج رئيس مؤتمر التصوف الذي اقيم بجامعة اتركت (هولند) حول المناوئين للتصوف، و الذي شاركنا فيها بمحاضرة و طبع سنة 1999 ، تحت عنوان "المعارضين للتصوف " Mysticism contested. تربى ابن عربي في قصور المعرفة في كنف والده في الأوساط العلمية الدينية و السياسية بين مجالس العلماء و الفقهاء و رجال السياسة ، حيث كان والده من كبار أعلام الفقه و الإفتاء عمل بقصر قرطبة في خدمة الإفتاء و التشريع. بدا ابن العربي سياحته الدينية و رحلاته العلمية و هو شاب صغيرا الى المشرق و تفي بدمشق التي استقر بها قبل ان توفيه المنية.

كان ابن عربي وليا صالحتا متصوفاً فقيها وشاعراً وفيلسوفاً . تغول في علم الباطن ف كتب" فصوص الحكم ". كما كتب في علم الظاهرة فكتب عن الائمة الاثناء عشر ، رغم انه لم يتشيع . انتشرت تعاليم ابن عربي و فلسفته الوجودية بسرعة هائلة عبر العالم بين العرب و العجم ابتداءا من القرن السادس عشر. ولم تكن كتاباته تدور حكراً على مجالس العلماء المسلمين، بل وجدت ضالتها في افاق العالم الروحاني في مختلف انحاء العالم حيث اتنشر المد الصوفي في بلاد الفرس و أفغانستان و ازريجان و حتى في دول اوروبا.

كتب ابن العربي كتبا عديدة في الفلسفة الفقه و السير و الشعر، اتلف اغلبا اثناء حروب الاسترداد حيث حرقت مكاتب الاندلس و البعض الاخر حرق اثناء حملات الاستعمار التي عرفها الألم الإسلامي في القرن التاسع عشر .

لكن لم يبقَ منها حتى الا القلة القلية في وقتنا هذا. من اهم مؤلفاته "روح القدس في مناصفة النفس " . اخرج فس شكل رسالة موجهة الى صديقه عبد العزيز أبو بكر القرشي المداوي في تونس. الف هذ الكتاب في مكة المنورة سنة 600ه/1203م. الفصل الأول هو عبارة عن نقد بعض الحالات التصوف التي انتضرت في زمنه. و في الفصل الثاني يعرض تعاليم خمسين صوفيا من الذين تخلموا عليه او التقى بهم في بعض المجالس. هذا الجز تم ترجمته و نشره ى الى اللغة الفرنسية من قبل R.W.J Austin و نشر في مطبعة الشهاب بباريس سنة 1971 (نحاوزوا في مكتبتنا الخاصة على نسختين من الترجمة). الغرض الكاتب من هذا الجزء المترجم هو على الرغم من بعض التحريفات و المغالطات التي قام بها بعض الصوفية الا انه يوجد دائما صوفيا ذو مستوى روحي راق.في الجزء الثالث يحصر ابن عربي مجموعة من المشاكل و الصعاب التي يصادفها اغلب المتصوفة و يغرض بعض تجاربه في هذا الميدان.

ب- المراجع:

- محمد الكحلاوي ، التصوف في افريقيا و المغرب، الفكر الصوفي في افريقيا و المغرب، بيروت لبنان ، 2009
- عبد السلام غرميني ، المدارس الصوفية المغربية و الاندلسية في القرن السادس الهجري، جار الرشاد ، المغرب
- دو نوفو الاخوان جماعات دينية ترجمة كمال فيلالي الشهاب 2003

-Alfred Bel, les confrérie religieuse musulmanes ,

- Kamel Filali , l'Algérie mystique, Publisud Paris 2003-

- Frederick de Young , Bernd Radtke et (kamel Filali), Mysticism contested , Brill, Leiden , Boston 1999

- Louis Rinn, Marabouts et Khouan , Adolph Jordan 1884

- *Emile Dermenghem*. — Vies des saints musulmans. Nouvelle édition revue -et continuée, Alger, éditions Baconnier, s. d. ; in-12 de 418 p.

- *Xavier Coppolani , Les confréries religieuses musulmanes,* Année 1898.

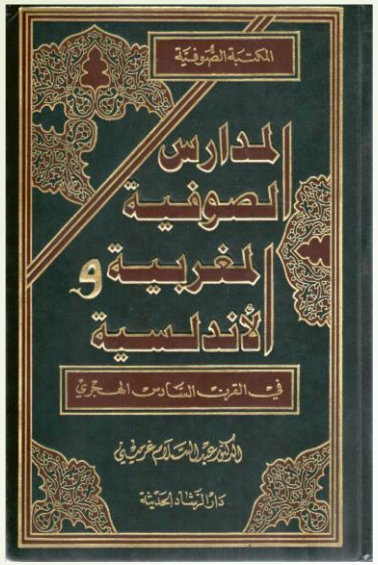
المكتبة الصوفية
المدارس الصوفية المغربية و الأندلسية
في القرن السادس الهجري
الدكتور عبد السلام غربي
دار الرشاد الحديثة

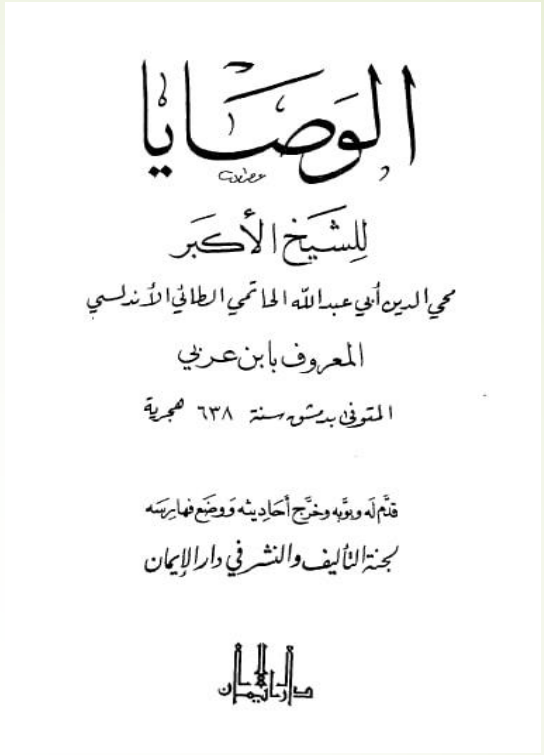
الوصايا
للشيخ الأكبر
محي الدين أبي عبد الله الحاتمي الطائي الأندلسي
المعروف بابن عربي
المتوفى بدمشق سنة ٦٣٨ هجرية
قدم له وبوبه وخرج أحاديثه ووضع فهارسه
لجنة التأليف والنشر في دار الإيمان
دار الإيمان

هجرة علماء غريس وتلمسان إلى فاس في العهد العثماني
المؤلف
كمال فيلالي

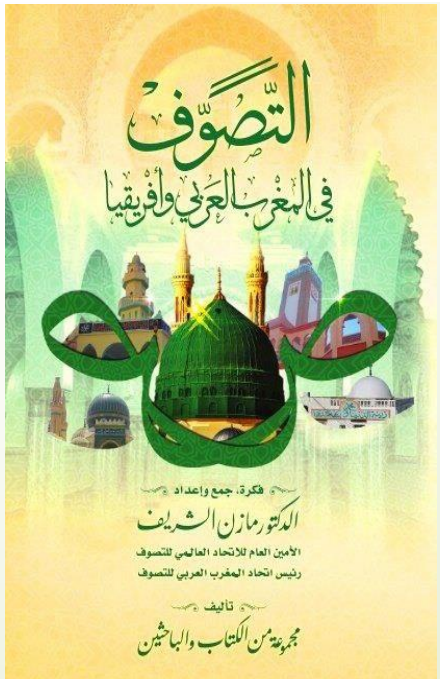
التصوف
في المغرب العربي وأفريقيا
فكرة، جمع وإعداد
الدكتور مازن الشريف
الأمين العام للاتحاد العالمي للتصوف
رئيس اتحاد المغرب العربي للتصوف
تأليف
مجموعة من الكتاب والباحثين

كتب و اسهامات الأستاذ فيلالي كمال في و الحركة الصوفية و المرابطية

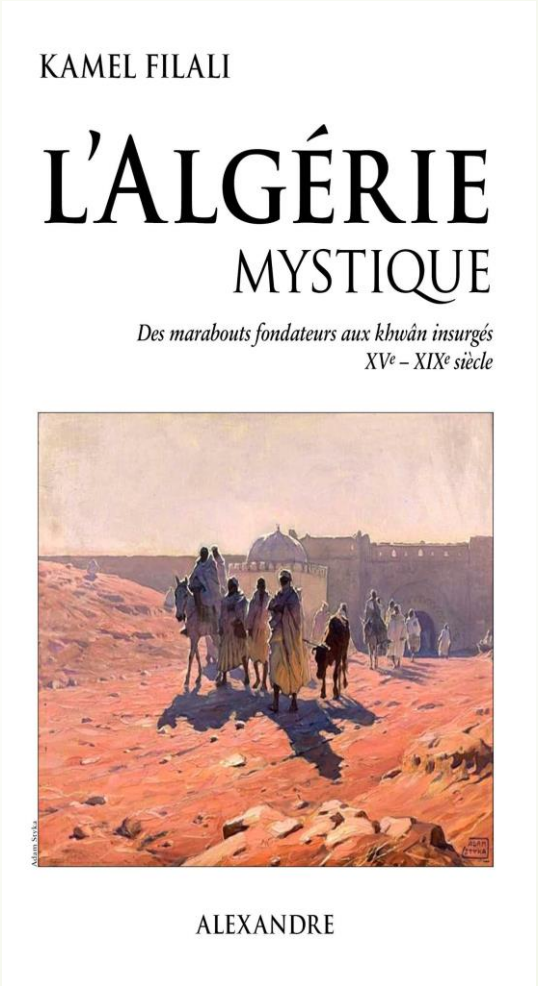

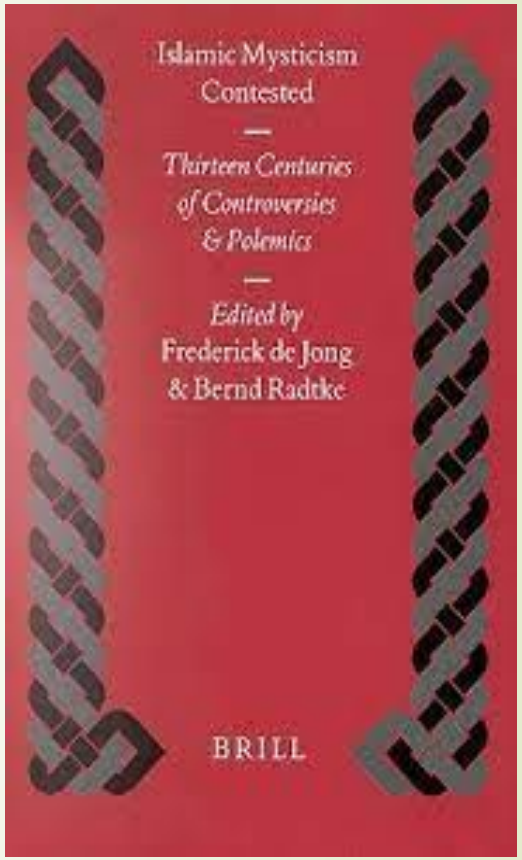

البروفيسور كمال الفيلالي
http://www.kml-filali